

بوصفها كتاباً أن تحفظ بقاعها إزاء ما تتنبأ به. ومن يعرف الرؤية الرومانتيكية التقديسية للشعر لن يستغرب الأهمية الخاصة التي تحتلها القصيدة – الصدفة في الحلم. الذي قد لا يعرفه الكثيرون من دارسي الشعر والنقد الرومانتيكي في الغرب، أو الذي لا يعيرونه اهتماماً كبيراً، هو دور الشعر الشرقي العربي خاصة في تشكيل تلك الرؤية التقديسية:

إن الشعر العربي شيء مختلف.. ولست أجد مناصاً من القول إن ثمة كثيراً من الخيال الإغريقي في «حكايات الليالي العربية». إن سفر أيوب شعر عربي خالص من أرقى المستويات وأعرقها (١٨).

هذه الملاحظة التي ضمناها كوليرج كتابه حديث المائدة لن يمكن فهمها تماماً دون إلمام بالسياق، أو السياقين المتداخلين اللذين ينتزمانها، وأولهما حركة الاستشراق كدراسة للثقافات الشرقية بعامة، أما الثاني فذلك النشاط العقلي الذي اشتد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر تحت مسمى «النقد المقدس» أو «نقد الكتاب المقدس» Sacred or Higher Criticism. مقولة كوليرج تنبع من هذين السياقين بشكل أكثر مباشرة من الأوصاف التقديسية التي يسبغها وردزورث على القصيدة الكامنة داخل الصدفة. لكن الإطار يظل واحداً. ومن مكونات ذلك الإطار اكتشاف الموروث الشعري العربي والنظرة إلى العرب كأمة تستقي شعرها مباشرة من الطبيعة.

رائد الاستشراق الإنجليزي، السير وليم جونز، لعب في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر دوراً حاسماً في ترسيخ تلك الرؤية الرومانتيكية المثالية للعرب وشعرهم من خلال دراسات وترجمات عديدة أشهرها ترجمة للمعلقات (١٧٨٢). ففي مقالة عن «الشعر الشرقي» كتب جونز يقول إن الجزيرة العربية، قاصداً اليمن على وجه التحديد، «تبدو البلد الوحيد في العالم الذي يمكننا فيه، وبشكل مناسب، أن نرسم مشهد الشعر الرعوي». ثم أضاف: «إن الآسيويين يتفوقون على سكان أقاليمنا الباردة بحيوية خيالهم وثراء ابتكارهم... لقد كان من الصعب أن نصدق مقدار الولع الذي يحمله العرب للشعر، والاحترام الذي يظهره للشعراء، لو لم يؤكد ذلك كتاب

---

Samuel Taylor Coleridge, *Selected Poetry and Prose* ed. Elisabeth Schneider (New ١٨) York: Holt, Rinehart and Winston, 1951) p. 461.